منشورات جامعة وادي النيل
مجلة النيل للآداب والعلوم الانسانية
(ISSN: 1858 – 7054)
المجلد الثالث، العدد الثاني، 2022م
http://www.nilevalley.edu.sd

المهدية الفكرة والثورة والمجتمع المهدوي

فتح الرحمن الطاهر عبد الرحمن حمد

جامعة البحر الاحمر

المؤلف: Fatah.conce@yahoo.com

المستخلص

هدف هذا البحث إلي دراسة المهدية كفكرة وثورة ومدي تأثيرها علي المجتمع السوداني,مع التعريف بفكرة المهدي المنتظر وانتشارها في العالم الاسلامي ثم انتقالها إلي السودان وتبني محمد أحمد بن عبد الله لها.اتبع الباحث منهج البحث التاريخي الوصفي والتحليلي في جمع المعلومات من المصادر والمراجع ثم مناقشتها وتحليلها والوصول من خلالها إلي نتائج وتوصيات ضمنت نهاية البحث.وخلص البحث إلي عدد من النتائج من بينها أن المهدية كفكرة كانت منتشرة في العالم الاسلامي ووصلت إلي السودان كغيره من الدول الاسلامية فأعلن محمد أحمد بن عبد الله أنه المهدي المنتظر وقاد ثورة دينية وطنية ضد الوجود التركي بالسودان وأسس دولة وطنية عرفت بدولة المهدية كما كان للثورة وتعاليم المهدي أثركبير علي المجتمع السوداني. وأوصي الباحث بضرورة العمل علي اجراء المزيد من الدراساتوالبحوث العلمية الموثقة الخاصة بتاريخ المهدية وكشف الحقائق التاريخية التي تهتم بدراسة المهدية كفكرة وثورة وتناقش تعاليم المهدية التي أثرت علي المجتمع السوداني.

الكلمات المفتاحية:المهدي المنتظر – محمد أحمد بن عبد الله -المهدية الفكرة والثورة –التعاليم الدينية للمهدي –المجتمع المهدوي.

Elmahdiyya, Idea, Revolution Mahdi Society

FathelrahmanEltahir Abdelrahman Hamad

Fatah.conce@yahoo.com

Abstract

The aim of this research is to study the Mahdiyya as an idea and revolution and the extent of its impact on Sudanese society, with the definition of the idea of the Awaited Mahdi and its spread in the Islamic world, then its transfer to Sudan and the adoption of it by Ahmed bin Abdul-Halt.The researcher followed the descriptive and analytical method of historical research in collecting information from sources and references, then discussing and analyzing them, and reaching through them to results and recommendations that ensured the end of the research.The research concluded with a number of results, including that the Mahdism as an idea was spread in the Islamic world and reached Sudan like other Islamic countries, so Mohamed bin Abdullah declared that he is the Awaited Mahdi and led a national religious revolution against the Turkish presence in Sudan and established a national state known as the Mahdist state as was the revolution and teachings. The Mahdi has a great impact on Sudanese society.The researcher recommended the need to work on conducting more documented scientific studies and research on the history of the Mahdist and revealing the historical facts that concern the study of the

Mahdist as an idea and revolution and discussing the teachings of the Mahdist that affected the Sudanese society.

Keywords: Awaited Mahdi, Mohamed Ahmed Ibn Abdellah, Mahdiyya idea and **revolution, Mahdi society**

مقدمة

تعتبر فكرة ظهور المخلّص أو المهدي المنتظر من الأفكار التي كانت منتشرة في العالم الاسلامي, والسودان كأحد تلك البلاد الاسلامية انتقلت اليه هذه الفكرة, فأعلن محمد أحمد بن عبد الله أنه هو المهدي المنتظر, وقد قاد ثورة دينية وطنية في مواجهة الحكم التركي في السودان وساعدته في ذلك تلك الظروف القاهرة التي كان يعيشها الشعب السوداني في ظل الحكم التركي من ظلم وفساد وضرائب باهظة بالاضافة إلي القسوة في جمعها وغيرها من الاسباب. كما أن انتشار الصوفية واعتقاد الناس في الأولياء والصالحين كان له أثر في تقبل الفكرة وانتشارها مما جعلهم يلتفون حول محمد أحمد الذي قاد الثورة ضد الحكم التركي والتي حققت قيام دولة المهدية الوطنية وأثرت بشكل فاعل في المجتمع السوداني.

مشكلة البحث

تتمثل مشكلة البحث في أن فكرة المهدي المنتظر كانت جزءاً من المعتقدات الدينية التي كانت سائدة بين المسلمين في العالم الاسلامي وأنها كانت قد اعتمدت في شرعيتها علي بعض تأويلات الآيات القرآنية والاحاديث النبوية, كما أن الفكرة والثورة أرتبطت بشخصية محمد أحمد بن عبد الله الذي أعلن أنه المهدي المنتظر. ولذلك فإن البحث يقتضي الإجابة علي السؤال الرئيسي وهو إلي أي مدي نجح محمد أحمد بن عبد الله في اقناع الناس بمهديته وقيادتهلثورة دينية وطنية نجحت في تحقيق أهدافها وأثرت بشكل فاعل في المجتمع السوداني؟ وتتفرع من السؤال الرئيسي بعض الاسئلة منها: ما هي الإمكانيات التي يتمتع بها محمد أحمد كزعيم ديني وقائد عسكري؟ وما هيآراءه الفكرية التي قاد بها الثورةونجاحها؟ وإلي أي مدي أثرت الحركة المهدية في المجتمع السوداني ؟.

أهداف البحث

هدف هذا البحث الي التعريف بفكرة المهدي المنتظر التي كانت سائدة ومنتشرة في العالم الاسلامي, ودراسة الحركة المهدية في السودان بعد إعلان وتبني محمد أحمد بن عبد الله أنه المهدي مع استعراض وبيان الحركة المهدية كفكرة وثورة ومدي تأثيرها عليالمجتمع.

منهج البحث

اتبع الباحث منهج البحث التاريخي الوصفي والتحليلي في جمع المعلومات من المصادر والمراجع ثم مناقشتها وتحليها والوصول من خلالها إلي نتائج وتوصيات ضمنت نهاية البحث.

حدود البحث

الحدود المكانية:السودان

الحدود الزمانية:الفترة من 1881م –1898م.

فكرة المهدية في العالم الإسلامي

فكرة الشخص المخلّص الذي سيظهر يوماً ما لينهي العناء والظلم ويقيم حكم العدالة علي الارض فكرة قديمة مشتركة بين الديانات السماوية الثلاثة. وان كان لكل ديانة مفهومها الخاص بذلك المخلص, فاليهود ينتظرون ظهوره والمسيحيون يعتقدون في الرجعة الثانية في حين أن المسلمين يتوقعون ظهور شخص ما ليقيم حكماً عادلاً وتغييراً اجتماعياً شاملاً يتماشي وارادة الله في هذا الكون هذا الشخص في نظر المسلمين هو الذي سيعود بالامة الي صفاء دينها, وهو الذي سيقود كل الانام قيادة رشيدة , وسيكفل لهم من ثم حياة خالية من الفساد والظلم حياة قوامها مجتمع مسلم حر خال من كل انواع الاضطهاد, مجتمع مثالي سيكون قدوة تحتذيه كل الامم وعليه فهذا الشخص المخلّص عند المسلمين هو ما يعرف بالمهدي. والذي سيكون واجبه اقامة أمة اسلامية مثالية تشمل كافة المسلمين.

هذه المسئولية الملقاة علي عاتق المهدي في الاسلام ذات جذور تاريخية, فهي ترجع الي احترام المسلمين وتعلقهم المتزايد بايام الاسلام الأولي, بل وبالنظام السياسي والاجتماعي الذي أقامه النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة, فقد اعتبر المسلمون في عصور لاحقة دولة النبي تلك دولة مثالية واعتبروا حكمها مثالاً يحتذي ونظامها قدوة لكل المسلمين خاصة بعد أن خابت آمال المسلمين في حكم من خلفوا النبي صلي الله عليه وسلم وولد هذا التعلق بعهد النبي تعلقاً آخر وحباً لآل بيته ظل يتزايد علي مر السنين ويتعاظم حتي جعل بعض المسلمين يرون أن خلاص أمة الاسلام لن يكون إلا علي يد شخص مهدي يأتي من آل البيت, بل أن بعضهم ذهب أن اسم ذلك المهدي لابد أن يكون كأسم النبي وكذلك كنيته وأنه سيظهر في آخر الزمان ليملأ الارض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً.

إذاً فان هذه الفكرة بدأت تتطور وتتضح سماتها كلما تبين فشل الأمم الاسلامية في زيادة أمة الاسلام وفي تحقيق غايات الأمة الاسلامية, فكلما اتضح ذلك زاد التعلق بأيام النبي وبدولته المثالية, وزاد الحنين الي شخص من آل البيت يعيد تلك الدولة.

فكرة المهدي المنتظر كانت قد احتلت حيزاً واسعاً في التراث الاسلامي. وانتشر امرها حتى غدت جزءاً من الفكر الصوفي. وقد ظهرت فكرة المهدي المنتظر أو المنقذ الموعود في عهد مبكر من تاريخ الأمة الإسلامية. وقد ظلت دعوة المهدي تمثل محوراً هاماً في حركات المعارضة للنظم القائمة كلما زاد الظلم واشتد الاضطهاد. واتخذها الناس شعاراً لبسط العدل. وقد تلقفت الفرق الإسلامية المختلفة هذه الفكرة وأضفت عليها كثيراً من التفاصيل ولكن دون أن تفقد جذورها في العقيدة الإسلامية. وكان الشيعة اول من روج لفكرة المهدي واتخذوها مدخلاً للسيطرة علي جهاز الحكم حتى صارت واحدة من اركان الفكر الشيعي الهامة, وقد تبناها المتصوفة من بعدهم. ومن اشهر من كتب عنها منهم محي الدين بن عربي الذي راجت كتبه مثل "الفتوحات المكية" و "عنقاء مغرب" في سودان وادي النيل في القرن التاسع عشر, حيث ازدهرت تعاليم الصوفية وكثر اتباعها, وفي تلك الفترة اسهب محي الدين عربي في الحديث عن المهدي المنتظر وجعله في

صورة قطب صوفي. وقد تحدث عنه ايضاً عبد الوهاب بن احمد الشعراني وكان كتابه "الطبقات الكبري" المسماه بـ "لواقح الانوار في طبقات الاخيار" من اكثر كتب الصوفية شيوعاً في السودان. وقد مهدت هذه الكتب وغيرها المناخ لانتشار فكرة المهدي المنتظر بين السودانيين وهيات الاذهان لرواجها في نهاية القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي(ابوسليم؛ محمد إبراهيم, 1970م, ص1-2).

يقول يوسف فضل: أن اهل السنة قد تاثروا بافكار الشيعة والمتصوفة إلا أن نظرتهم لفكرة الامام المهدي كانت اكثر اعتدالاً وكانوا يرونه بمثابة المصلح الديني الذي يعيد للإسلام نقاءه ويجدد مجده. وقد اقترنت فكرة المهدي عند بعض اهل السنة بالمسلم الذي يعيد للإسلام عظمته بعد انفراط عقده, وربطوا بين هذه الفكرة وبين ما يروي عن حديث النبي صلي الله عليه وسلم:"أن الله يبعث لهذه الامة علي راس كل قرن من يجدد دينها"(فضل, يوسف؛ 1981م, ص166-167).

ومع أن لفظ المهدي لم يرد في القران صراحة , فقد اولت بعض الايات الكريمة لتبرير فكرة المهدي وللدلالة علي تكليف بعض الافراد بالهداية والارشاد مثل: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55)**﴾(سورة النور؛الآية 50). وقوله تعالي: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7)**﴾**(سورة الرعد الآية 7).**

ويقول يوسف فضل: انه قد تواتر ذكر المهدي في بعض الاحاديث التي بلغت نحو الثلاثين حديثاً. وقد اخرج احاديث المهدي هذه جماعة من الائمة منهم الترمذي وأبو داؤود والبزاز وابن ماجة والحاكم والطبراني وأبو علي الموصلي واسندوها إلي جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم مثل علي وابن عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وانس وابي هريرة وام حبيبة وام سلمة وثوبان وقرة بن اياس وعلي الهلالي وعبد الله بن الحارث باسانيد ربما انكرها بعض ائمة الحديث. وحقيقة الامر أن بعض النقاد قد اتهموا هذه الاحاديث بالضعف خاصة وأنها لم ترد في صحيحي الامامين البخاري ومسلم.

وقد تناول العلامة ابن خلدون عددا من هذه الاحاديث بالنقد واورد ما ياخذه علي رواتها. ولكن اعترف بقوة اسانيد بعضها مثل ما رواه الحاكم من طريق عوف الاعرابي عن ابي الصديق عن ابي صديق الناجي عن ابي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم:" لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض جوراً وظلماً وعدواناً ثم يخرج من اهل بيتي رجل يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً". وقال فيه الحاكم هذا صحيح علي شرط الشيخين (أي البخاري ومسلم) ولم يخرجاه. وروي الحاكم أيضاً من طريق اسد بن موسي بن حماد بن سلمة عن مطر الوراق, وابي هارون العبدي عن ابي الصديق الناجي عن ابي سعيد أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال:"تملأ الأرض جوراً وظلماً فيخرج رجلاً من عترتي فيملك سبعاً أو تسعاً فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً" فخرج ابو بكر البزاز في مسنده والطبراني في معجمه الكبير والاوسط عن قرة ابن اياس قال, قال رسول الله صلي الله عليه وسلم:" لتملأن الأرض جوراً وظلماً فإذا ملئت جوراً وظلماً بعث الله رجلاً من امتي اسمه اسمي واسم ابيه اسم ابي يملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً.."(ابن خلدون؛1967م,ص 566).

ولعل من اغرب هذه الاحاديث كما يقول ابن خلدون عرضه للاحاديث ما ذكره ابو بكر بن الاسكاف في فوائد الاخبار مسنداً إلي مالك بن انس عن محمد بن المنكدر عن جابر قال, قال رسول الله صلي الله عليه وسلم:"من كذب بالمهدي فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كذب". ويختتم ابن خلدون عرضه للاحاديث التي تتنبا بظهور المهدي وتصف رسالته بقوله:" فهذه جملة الاحاديث التي خرجها الائمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان" وهي لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الاقل منه.

مع كل الانكار لفكرة المهدي التي حملها نقد ابن خلدون لتلك الاحاديث فانه يرجح قول هذه الفكرة علي مر العصور الإسلامية عند كافة المسلمين بقوله:"اعلم أن المشهور بين الكافة من اهل الاسلام علي مر الاعصار انه لابد في آخر الزمان من ظهور رجل من اهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولي علي الممالك الإسلامية ويسمي بالمهدي, ويكون خروج الرجال ومن بعده من اشراط الساعة الثابتة في الصحيح, علي اثره وان عيسي ينزل من بعده فيقتل الدجال, أو ينزل معه فيساعده علي قتله ويأتم بالمهدي في صلاته"(ابن خلدون؛ 1967م, ص555).

عموماً ومما سبق فان فكرة المهدية قد صارت عند القرن التاسع عشر جزءاً هاماً من المعتقدات الدينية السائدة بين المسلمين في العالم الإسلامي وكانت تستمد شرعيتها من تأويل الآيات القرآنية والاحاديث النبوية. وقد ادعي كثير من الناس المهدية وهذا دليل علي شيوع هذه الفكرة في العالم الإسلامي ومنهم علي سبيل المثال عبيد الله المهدي زعيم حركة الموحدين التي كتب لها النجاح بتاسيس دولة فتية شملت شمال غرب افريقيا وبلاد الاندلس, وكذلك الشيخ حمد بن الترابي السوداني الذي عاش في عهد الفونج ولكن دعواه لم تجد صدي كبيراً.

المهدية في السودان الفكرة والثورة

انتقلت فكرة المهدية التي انتشرت في العالم الاسلامي آنذاك الي السودان كغيره من سائر البلدان الاسلامية, وقد تبناه محمد احمد بن عبد الله, وأعلن أنه هو المهدي المنتظر. ويعتبر محمد احمد بن عبد الله من ابرز زعماء السودان الحديث, فقد كان زعيماً سياسياً استطاع أن يقود اهل السودان في صراعهم ضد الحكم التركي المصري, وان يضع اسساً عامة لتنظيم المجتمع وإدارته. وكان قائداً عسكرياً فذاً تجلت مقدراته في المعارك التي خاضها وتعدد اساليب القتال التي مارسها. بالإضافة إلي بعض آراءه الفكرية التي تناول فيها قضايا الثورة وآفاقها. ولذلك فان كل ذلك قد هيأله ليصبح قائداً لأول ثورة تحرر وطني في تاريخ السودان الحديث.

نشأ محمد احمد بن عبد الله الذي ولد في جزيرة لبب بشمال السودان في عام 1844م نشاة دينية وبدأ تعليمه بمبادئ القراءة والكتابة علي يد والده ثم انتقل إلي كرري بشمال أم درمان عند الشيخ الصويلح, ثم إلي قرية كترانج شرق المسيد بالجزيرة. وتنقل في طلب العلم بين الشيوخ وانتقل إلي قري الحلاوين حيث تعلم علي يد شيخه محمد شريف نور الدائم, واخذ الطريقة السمانية من شيخه القرشي ود الزين الذي اخذها من الشيخ الطيب. وقد اشتهر بين الناس بالتقوي والورع والدين.

كان محمد احمد يحس كغيره من السودانيين بالأوضاع السيئة التي وصلت لها البلاد بسبب إدارة العهد التركي المصري بالبلاد(1821م-1885م) وابتعاد الناس عن العقيدة الحقة وانتشار البدع والفساد والتردي الخلقي, وما صاحب ذلك من

فساد الادارة الحكومية وفداحة الضرائب ومحاباة الحكومة للبعض. ولذلك فان الناس كانوا يأملون في الخلاص, وكانوا يترقبون الخلاص علي يد المهدي الذي سمعوا بقرب ظهوره, كما أن حركة المجاهد عثمان دانفوديو وخلفاؤه من بعده قد نبهت الاذهان إلي قرب ظهور المهدي المنتظر في المشرق وحثوا اتباعهم علي تأييده مما أدي إلي هجرة بشرية كبيرة إلي منطقة سودان وادي النيل والحجاز للمشاركة في ذلك الحدث العظيم. فلما اعلن محمد احمد بن عبد الله في السودان مهديته آمن به كل من انتقل إلي السودان وكان في انتظار المهدي, كما التف حوله الناس لأنه كان يخاطبهم بأمر يعرفونه ويتوقعون حدوثه(فضل, يوسف؛ م1981, ص 168 - 169).

عندما قامت ثورة محمد احمد بن عبد الله كان السودان تحت الادارة التركية المصرية, اذ بدأ الغزو التركي المصري (1820م-1821م) وقد كان بداية لوضع جديد بالنسبة للسودان, فقد برزت نتيجة ذلك الغزو الكينونة السياسية لما يعرف اليوم والذي كان حتى ذلك الوقت مجموعة من الممالك والمشيخات ومناطق النفوذ والقبائل. لقد أدي التوسع الاستعماري التركي إلي تجميع تلك المؤسسات في إطار واحد رغم ما بينها من عوامل التنافر الكثيرة وقلة عوامل التوحد والارتباط فاقام الحكم الجديد حكومة مركزية يحكم بها تلك البقاع.

لقد ادت السياسة العامة للحكم التركي المصري إلي استعداء مختلف طبقات المجتمع وفئاته. فهو حكم اجنبي مارس شتي صنوف القهر مع المواطن السوداني, فترسبت في وجدان الناس كراهية له عبروا عنها بشتي انواع التمرد والهروب والامثلة الشعبية. ولكن ذلك الغضب والسخط يحتاج إلي وعي اجتماعي ينصهر فيه وتتبلور منه معالم التغيير حتى ينضوي تحت لوائه كل الناس, علي أن يتم ذلك دون أن ينفرط عقد الوحدة السياسية التي اقامها الحكم التركي المصري, حيث يؤدي انهيار الحكم القائم للعودة إلي عهد الممالك المستقلة والمشيخات.

ويلخص ماكمايكل حالة السودان في تلك المرحلة كالآتي: " كانت حدود السودان الجنوبية تنتهي في الشمال الشرقي من بحيرة ألبرت علي النيل الفكتوري. وقد تم التخلص من أغلب المساحات التي تشمل يوغندا الحالية. بينما كان أمين باشا يشرف علي الاستوائية ورئاسته في لادو بالقرب من واو, كان جسي حاكماً لبحر الغزال, ولكن الادارة كانت شبه معدومة وكان تجار الرقيق يتصرفون كما يشاءوون. أما كردفان ودارفور فأصلاً لم يتم اخضاعهما تماماً وكانتا في حالة اضطراب, كما كانت الحبشة في حالة تحفز وتحرش من جهة الشرق, وكان الفقر المدقع والخراب والفساد والعجز متفشياً في كل البلاد"(ماكمايكل؛ السير هارولد: 2009م, ص 62 - 63).

نتيجة لتلك الفوضي الادارية وسياسات القهر والفساد وغيره من الاسباب التي ارتبطت بالحكم التركي في السودان فقد تهيأت كل الظروف لقيام الثورة. ويقول السير هارولد ماكمايكل:" السبب في أنها لم تندلع سابقاً هو غياب قائد ملهم يتمكن بشخصيته الطاغية من أن يلهب حماس الشعب ويوحد كافة البلاد. وقد ظهر ذلك الرجل في شخص محمد أحمد الدنقلاوي ابن نجار المراكب وكان عمره ثلاثة وثلاثين عاماً. كانت قوته تتمثل في حماسه الدافق للاصلاح الديني وقدراته الطبيعية علي قيادة الناس, أما تردي الأحوال المزري في كافة أنحاء البلاد وانهيار أي مظهر للادارة النظامية, فقد ساعدا في اتاحة الفرصة والزخم. وفي أغسطس وبعد أن استعمل حكمته في تجنيد بقارة كردفان المحاربين لصفوفه, وأعمل سيوفه في رقاب المئات من القوات التي أرسلت لاعتقاله, اعلن في جزيرة أبا بالنيل الابيض أنه المهدي المنتظر والمرشد الألهي للخلاص" (ماكمايكل؛ السير هارولد: 2009م, ص 62 - 63).

كانت الاستجابة سريعة وفورية من الجميع وأن بعض الاجراءات غير المجدية قد اتخذت في الأيام الأولي لحصر الثورة جنوبي الخرطوم, إلا أن إبادة القوة الكبيرة التي أرسلت غرباً في مايو 1882م بقيادة يوسف باشا الشلالي كانت دافعاً للثورة التي أصبحت تعم كل البلاد وأخضعت كافة البلاد ماعدا المدن ذات الحاميات الكبيرة.

ولذلك كما يري الباحث فان مهمة من يقف في وجه ذلك النظام لا بد أن تتوفر فيه صفات القائد الذي يمكنه أن يحقق الاستقلال للأمة السودانية دون أن ينفرط ذلك العقد الذي بناه النظام التركي, ولذلك فان شخصية المهدي بالإضافة إلي ارتباط العامل الديني بدعوته وقيادته قد ساهم في الحفاظ علي تلك الوحدة لاراضي وشعب السودان تحت لواء الثورة المهدية التي قادت البلاد إلي استقلالها وتكونت بموجبها حكومة المهدية الوطنية.

التصوف والصوفية في السودان كان لها أثر بالغ في اعتقاد الناس وايمانهم بالافكار التي كانت سائدة في العالم الاسلامي. وهي تعبر عن موقف اجتماعي وفكري اذ كانت رافضة رفضاً صريحاً لمجريات الاوضاع الاجتماعية والسياسية التي تحمل كل ما له علاقة بفساد الأحوال والعقائد, والتفرغ لممارسة الشعارات الدينية وحدها مع قهر النفس علي احتمال اشق حالات هذه الممارسة وحرمانها من كل مشتهيات العيش, وهذا ما يعرف عند الصوفية بمجاهدة النفس.

كان لانتقال الصوفية إلي السودان خصوصية واضحة, فرجال الصوفية هم الذين قادوا حركة التبشير المنظم ونشر الاسلام في مملكة الفونج. وانتشروا في سهول البلاد يقيمون الخلاوي التي لا تنطفيء نارها, يطعمون الجائع ويعالجون المريض ويدرسون القرآن. وقد وجد الناس في كنف الصوفي ودفء ردائه ملاذ عواصف الدهر وتقلبات الحياة. وكتاب الطبقات يعكس انتصار الرأي العام الحاسم لجانب الصوفي امام منافسيه من علماء السنة. وانتشرت القصص عن كرامات اولئك الاولياء والصالحين, واحتلوا مكانا رفيعاً في سلم الحياة الاجتماعية وفي بلاط الحكام الفونج(فضل,يوسف؛ 1974م, ص 80).

وعندما جاء الحكم التركي المصري واخذ في اخضاع المؤسسة الصوفية لنظام الحكم المركزي باسلوبه الفوقي الضيق ابتعد رجال الصوفية عن مسرح الحياة وحل مكانهم علماء الشريعة. ولكنهم ما استطاعوا اداء مهمة الصوفي المتشعبة. واحتفظت المؤسسة الصوفية بمكانتها في نفوس الناس. في هذا الجو المصطرع والمشبع بالمعتقدات الروحية عاش محمد احمد متاثراً بتناقضات عصره وروحانياته. ولكن محمد احمد انتقل من مجرد صوفي ينشد الخلاص لنفسه بين اروقة الصوفية وخلاويها, إلي صوفي ينشد الخلاص للناس من براثن الحكم التركي, فغدي في مسلكه وفكره تجسيداً للوعي الاجتماعي في تلك المرحلة(إبراهيم, عبد الله علي؛ 1966م, ص42).

بدأ المهدي زاهداً في مسلكه الخاص وفي تركيزه علي فكرة زوال الدنيا وفناءها. وتبصير الناس بذلك. وهي فكرة قديمة في حد ذاتها ومتداولة في الادب الصوفي. بل هي ركائز ذلك الادب , ولكن المهدي لم يطرحها مجرد رفض مطلق لهذه الدنيا الفانية وعزوفها عنها. بل ربط ذلك بتكالب الناس علي الاموال والوظائف, وتكالبهم اخر الامر علي النظام التركي القائم في البلاد. وقد دعا الناس إلي الخروج من روابط هذه الدنيا والاتجاه بالأعمال نحو غايات تحقق النجاح في الاخرة وقد كتب في احدي خطاباته المبكرة "أن الدنيا سريعة الانقضاء وكل ما فيها مصحوببكسفة الفناء ", ويحذر من مغبة التكالب علي الاموال ويوصي بالاتكال علي الله وان يترك الانسان في سبيل تحقيق ذلك مراد نفسه. ويدعو إلي ترك الاهل والمال لنصرة الدين, اذ العمر إلي زوال. ويؤكد فوات جميع ما في الدنيا وعظمة ما عند الله. وتصل هذه الدعوة ذروتها في منشوره المعرف

"بحياة الدين الكبري" الذي صدر في أكتوبر 1884م والذي جمع فيه المهدي خلاصة افكاره واهدافه وغاياته. ويستعمل في سبيل تقريب افكاره تعابيراً وصوراً قريبة إلي فهم الناس فيصف الدنيا بأنها "عارية", وبانها لا تساوي جناح بعوضة وأنها دنيا غرور والتعبير الاخير تجده ذائعاً في الادب الشعبي:"قرار العبوس" أي الدنيا.

وقد دعا المهدي في بداية الحركة إلي كتمانها والأخذ بالسرية المطلقة. فانتقلت الدعوة من مجرد حركة صوفية إلي دعوة تعارض النظام القائم, وقد دعا محمد احمد إلي الانتقال والخروج من عالم التركية المليئ بالمظالم. كانت دعوة المهدي للانضمام اليه تعبيراً عن موقف اجتماعي, فكانت الوسيلة التي بها يستطيع تكوين جيش من المقاتلين المخلصين والكوادر الطليعة. فكانت هذه من الافكار المركزية في حركته, وقد ترددت كثيراً في كتاباته, ففي رسائله الأولي 1880م كان يطلب ممن خاطبهم الحضور اليه للدخول في "العهد المعلوم". ثم يمضي ليؤكد أن من فر بدينه من ارض إلي ارض استوجب الجنة, وان من ترك في سبيل ذلك "شيئاً عوضه الله خير منه". وهو مسلك انتهجه الصحابة من قبل. ويكتب إلي احبائه طالباً منهم اخلاء ايديهم من جميع الاشغال التي تحت ايديهم وينادي بضرورة "تشجيع الاهل إلي الهجرة الينا.... ولازم تزهد المحبين عن الاوطان والاموال". وكان دائماً يكرر امر اللحاق به إلي مكان يكون فيه قوام الدين, وهكذا تجمع حوله عدد من الشخصيات ذات النفوذ الاجتماعي(ابو سليم؛ 1979م, ص 4).

يري الباحث أن فكرة المهدية قد وجدت في محمد احمد بن عبد الله من اعطاها دفعة جديدة وقوية, وقد كان المناخ الصوفي في السودان مع انتشار فكرة المهدي المنتظر التي انتشرت بالسودان كغيرها من بلاد المسلمين, كان لذلك المناخ الصوفي ابلغ الاثر في تقبل الناس لفكرة المهدي المنتظر حيث أن الاعتقاد في الاولياء والصالحين قد جعل من الفكرة واقعاً تم قبوله بكل قناعة عند معظم من آمنوا بمهدية محمد احمد بن عبد الله والتفوا حوله مما أدي إلي نجاح تلك الثورة التي سميت "بالثورة المهدية في السودان". ولذلك فان العامل الديني مع المناخ الصوفي قد جعل منها ثورة قوية استطاعت أن تقضي علي النظام التركي المصري وتأسس دولة وطنية عرفت "بدولة المهدية" بالسودان.

كان المهدي يستمد جوهر حركته من الموروث الاسلامي في صدر الاسلام ابان نقائه الاول في عهد النبي عليه الصلاة والسلام وعهد الخلفاء الراشدين كما يقول هو بنفسه. وقد مزج كل ذلك بعناصر من صميم المجتمع السوداني فكان ذلك عاملاً من عوامل سرعة الاستجابة له, ومن عوامل نجاح دعوته في السودان.

وتميزالنشاط الثوري للحركة المهدية باهتمام المهدي باعلان الجهاد, فالجهاد هو درجة متقدمة في العمل الثوري. وقد أصدر المهدي العديد من المنشورات الخاصة بالجهاد وحث الناس عليه. ولعل تلك المنشورات قمة عمله الدعائي. فقد أصدر منشورات مطولة في موضوع الجهاد فقط, كما أكثر من اصدارها في هذا الأمر واستعمل اسلوباً مبسطاً لتقريب الفكرة فيكتب قائلاً: " علي أن الكفرة يقاتلون فيموتون ويجرحون من رجاء من عند الله تعالي, فكيف لا يرضي المؤمن الطالب من عند الله تعالي". ولذلك فإن الجهاد الذي ينادي به مؤيد من الله تأييداً مادياً. فالرسول (ص) وصحبه وجنود الله معه حيث كان. وقد وعده الرسول بأن يقوم معه "نحو عشرون ألفاً"..... وان اصحابنا في تقويم الذين مائتين وأربعين ألفاً وستين ألفاً من الأولياء....." وسيؤيده آلاف من الأولياء. فكان من الطبيعي أن يستجيب له الناس, بدأت استجابتهم بدائرة ضيقة, أخذت تتسع مع انتصارات المهدي المتلاحقة حتي غدا لديه جيش قوامه عدة آلاف حاصر بهم الخرطوم واستولي عليها في 26 يناير 1885م.

ولكن أفكار المهدي الثورية في مجملها استطاعت أن تعبر عن الوعي الاجتماعي التواق الي التحرر من الحكم الاجنبي. واستطاعت أن تحول جوانب من التراث الاسلامي الي قوة محركة للناس في ذلك الوضع التاريخي. وقد لعبت شخصية المهدي دوراً متميزاً في تقريب تلك الافكار الثورية الي فهم الناس وفي تبسيطها لهم حتي قبلوا بها.

تعاليم المهدية الدينية

كانت الانتصارات الحربية قد طغت علي الناحية الدينية في الدعوة المهدية , كما أن المهدي نفسه لم يتفرغ لوضعها وشرحها, وكان ينوي ذلك بعد سقوط الخرطوم لولا أن عاجلته المنية قبل أن يقطع شوطاًفي ذلك. واذا كان خلفاؤه وانصاره قاموا باعباء الوجهة الحربية فان الناحية الدينية لم تجد من يخصص جهوده لها. فالعلماء ظاهرت اغلبيتهم المهدية خوفاً علي أرواحهم وأرزاقهم والمؤمنون بها لم يكونوا باهل علم ومعرفة وفوق ذلك فرجل الدولة وخليفته من بعده ما كان علي غرار المهدي من حيث العلم المعرفة والتعمق في الشئون الدينية وما كانله والحالة هذه أن يوطئ أكنافه لمن يتصدي لفلسفة المهدية وهو رجل ايمان بالمهدية دون جدال وهو علي استعداد لقبول ما أثر عن المهدي علي ظاهره ولا حاجة لأن يغوصسالي اعماق تعاليم امامه. وفي نظره زيادة علي ذلك أن الحقبة التي قدّر له أن يحياها بعد الامام كانت استمرار للجهاد وليست للنظريات الدينية (شبيكة؛ مكي: 1377هـ - 1947م, ص 235).

وعلي هذا انقضي عهد المهدية ولم يخلف لنا من الناحية الدينية الا بعض رسائل صغيرة دونها من عكفوا علي ذلك من احاديث وأقوال سمعوها عن المهدي وحفظ أغلبها في صدور الرجال ودفنت معهم وقد يستطيع الباحث استخلاص اليسير من منشورات المهدي.

ما كان محمد احمد غافلاً من بناء تعاليمه علي اسس منطقية فلسفية, وما كان يصدر في مذهبه الذي يبشر به ويدعو له عن وحي الساعة بل هي آراء كونها عن حالة الاسلام والمسلمين أثناء تجواله وأثناء اطلاعه ومخالطته للعلماء والصالحين.وركز فكرته علي دعامتين دعا لهما وقام بتنفيذهما. أولاهما هي أن تعدد المذاهبواختلاف الملل والنحل الدينية وتلكالاكداس من الكتب وغيرها من الصفحات تلو الصفحات في مسائل فرعية لا قيمة لها من حيث الدعائم والاركان التي تقوم عليها العقيدة الاسلامية. وذلك الكم من وجهات النظر المختلفة بين العلماء في تفاصيل ليست من أصل الدين وكل ذلك قد باعد بين المسلم وبين مصدري الضياء وهما القرآن والسنة.

والدعامة الثانية هي العمل بالدين والخضوع لنواهيه وأوامره والقيام بفروضه وواجباته فقد انحرف الناس وانصرفوا عن الدين وانحدر الناس نحو هاوية سحيق قرارها, وأصبح الدين اسماً لا عمل به. ورأي ما يحدث في المجتمع وما وصلت اليه الحال في السودان, فالشريعة الاسلامية معطلة والحكومة والقضاء يقومان علي العرف والعادة والقوانين الوضعية, والحكام يتساهلون مع الشعب في اتباع الفروض الاسلامية والعملها.

وتنفيذا لهذين المبدأين قام بأعمال انكرها عليه العلماء اذ أمر باحراق الكتب إلا الأصول منها كالقرآن والصحيحين وإحياء علوم الدين للغزالي وغيرها سماها لأنصاره, واعتبر أن الكتب التي أمر باحراقها في نظره حجبت النور المنبعث من القرآن والسنة. والمذاهب الاربعة يبطل العمل بها لانها المسئولة عن اقامة ذلك السد.

التأثير الاجتماعي للحركة المهدية

خلقت الثورة المهدية مجتمع مهدوي في السودان, بدأ هذا المجتمع مع بداية الثورة المهدية وتنامي مع نموها وأمتد الي ما بعد نهاية الدولة المهدية. فطبيعة المجتمع السوداني قبيل قيام الثورة المهدية كان مجتمع متعدد الولاءات فبجانب الولاء القبلي الذي لم تفلح مركزية الحكم التركي المصري في القضاء عليه كان هناك الولاء الديني الصوفي, والولاء السياسي المرتبط بأداة الحكم (التركي المصري)برغم ضعفه. ولهذا كان في مقدمة الأهداف التي أعلنتها الثورة المهدية في السودان القضاء علي ظاهرة التفتت الاجتماعي وتعدد الولاءات في المجتمع السوداني وخلق مجتمع واحد يدين بالولاء للمهدية فحسب, الأمر الذي كان يعني بالضرورة القضاء علي التعصب القبلي والانقسام الصوفي بعد القضاء علي النظام التركي المصري واستقطاب اعوانه من العناصر المحلية من السودانيين.

وبهذا فإن المهدية رغم كونها ثورة دينية في المقام الأول إلا أن الاهداف الاجتماعية كانت في مقدمةأهدافها التي اعلنتها, وهذا أمر طبيعي يتفق مع طبيعتها كثورة دينية اصلاحية وهي في نفس الوقت انطوت علي أهداف سياسية واقتصادية لتلازم هذه المناحي جميعها وتداخلها وتعذر انفصالها بطبيعة الحال.

وفي الفكر المهدوي – لدي محمد أحمد – يتم اكتماله بثلاث مراحل, تبدأ المرحلة الاولي بخلق مجتمع مهدوي في السودان تليها المرحلة الثانية حيث يتسع ذلك المجتمع ليضم بالاضافة الي السودان البلاد الاسلامية المجاورة, ثم تأتي بعد ذلك المرحلة الثالثة والاخيرة والتي يكون فيها العالم كله مجتمعاً مهدوياً واحد يشمل جميع اقطار الارض. ولكن المرحلة الاولي فقط هي التي تحققت دون المرحلتين الأخيرتين, ويرجع ذلك الي جملة اسباب من أهمها فقدان الثورة لقائدها في وقت مبكر غير منتظر, بالاضافة الي تضافر عوامل أخري في مقدمتها نشاط حركة الاستعمار الأوربي التي استهدفت آسيا وأفريقيا بصفة خاصة وزامنت قيام دولة المهدية في السودان, بالاضافة الي تعدد الجبهات الداخلية والخارجية التي تحتم علي المهدية أن تواجهها. دون أن تتوفر لها القوة المادية والبشرية الكافية(شبيكة؛ مكي: 1980م, 693 وما بعدها).

عموماً فقد استطاعت المهدية أن تحدث تغييراً كبيراً في المجتمع السوداني, برغم أن هذا التغيير لم يكن بما انتهي عليه بشكل عام علي النحو الذي اراده المهدي نفسه. ويمكن القول بان الوسائل التي استخدمتها المهدية لتحقيق ذلك التحول الاجتماعي في السودان اربع وسائل هي:-

الدعوة: وقد بدأت سرية مثل سائر الدعوات, ثم اصبحت علنية يوم أن أبرق المهدي الحكمدار في الخرطوم وهو بالكوة معلناً علي الملأ دعوته في السابع من أغسطس 1881م . بحيث اصبح ذلك التاريخ فيصل بين مرحلتين.

وقد كانت بمثابة العهد والميثاق الذي يعلن الوافد الجديد الي صفوف المهدية بمقتضاه التزامه وتقييده بشروط ذلك المجتمع المهدوي. وقد كانت سرية بادئ الامر وبطبيعة الحال, ثم اصبحت علنية بعد ان جهر المهدي بالدعوة وبعد واقعة الجزيرة أبا علي وجه الدقة.

ثم الهجرة: فراراً بالدين – علي حد تعبير المهدي نفسه- الي محل يكون فيه قوام الدين واصلاح أمر الدارين.

ثم الجهاد: باعتباره الدعامة الاساسية من دعامات الدعوة الي الله والأداة اللازمة للقضاء علي النظام التركي المصري القائم وقتذاك واحلال نظام ومجتمع مهدوي محله.

ومن أهم التحولات الحقيقية التي استطاعت أن تحدثها المهدية في المجتمع السوداني تغيير نظام الحكم اذ انها بقضائها علي اداة الحكم التركي المصري قضت علي النظام المدني للحكم بكافة اجهزته وادواته الادارية والقضائية والعسكرية وغيرها. وأقامت مكانه حكومة أو دولة دينية بعثت فيها كل اجهزة الدولة الاسلامية التي كانت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام من بيت مال ودار قضاء وافتاء وجيش وخلافها. وأصبح المهدي علي رأس الدولة باعتباره خليفة رسول الله يليه الخلفاء وأمناؤه الذين كان يستعين بهم في تصريف الشئون المدنية والادارية والعسكرة وغيرها.

النتائج

خلص البحث إلي عدد من النتائج وهي:

١- ان فكرة المهدي المنتظر كانت من الافكار والمعتقدات الدينية المنتشرة في العالم الاسلامي, والتي كانت تستمد شرعيتها من تأويل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.
٢- أعلن محمد احمد بن عبد الله أنه المهدي المنتظر في السودان وقد هيأت له شخصيتهالقيادية القوية كزعيم,وشهرته كرجل دين,ومقدرته علي اقناع الناس أن يصبح قائداً لثورة دينية وطنية حققت نجاحات وانتصارات علي الحكم التركي الذي كان سائداً وأسست دولة وطنية عرفت بالدولة المهدية في تاريخ السودان الحديث.
٣- استطاع محمد أحمد بن عبد الله أن يضع أسساً عامة لتنظيم المجتمع السوداني وادارته عبر تعاليم دينية كان لها أثر كبير في تكوين المجتمع المهدوي.
٤- أن المناخ الصوفي في السودان والذي كان يسوده الاعتقاد في الأولياء والصالحين كان له أثر كبير في تقبل فكرة المهدي المنتظر وفي اتباع الناس لمحمد أحمد بن عبد الله حينما أعلن أنه المهدي المنتظر في السودان.

التوصيات

وأوصي الباحث بضرورة العمل علي اجراء المزيد من الدراسات والبحوث العلمية الموثقة الخاصة بتاريخ المهدية وكشف الحقائق التاريخية التي تهتم بدراسة المهدية كفكرة وثورة وتناقش تعاليم المهدية التي أثرت علي المجتمع السوداني.

المصادروالمراجع

القرآن الكريم.

الأحاديث النبوية.

إبراهيم،عبد الله علي (1966م). الصراع بين المهدي والعلماء, شعبة ابحاث جامعة الخرطوم.

ابن خلدون (1967م). المقدمة, من تاريخ كتاب الصبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر, بيروت

ابو سليم، محمد إبراهيم (1970م). الحركة الفكرية في المهدية, الخرطوم.

ابو سليم، محمد إبراهيم (1979م). منشورات المهدية, دار الجيل – بيروت, ط2.

شبيكة، مكي (1947م). السودان في قرن 1819م – 1919م, مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر, القاهرة.

شبيكة؛ مكي (1980م). تاريخ شعوب وادي النيل– مصر والسودان, دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع, ص 693

فضل, يوسف حسن؛ تحقيق كتاب الطبقات لود ضيف الله, ج ط2, 1974م.

فضل، يوسف حسن (1981م). مسار الدعوة المهدية خارج السودان علي ضوء رسائل المهدي وخليفته, دراسات في تاريخ المهدية مطبوعات جامعة الخرطوم- البحوث التي قدمت للمؤتمر العالمي لتاريخ المهدية, الخرطوم 29 نوفمبر.

ماكمايكل، السير هارول (2009م). السودان, ترجمة محمود صالح عثمان صالح, ط2, مركز عبد الكريم ميرغني بأم درمان.